سلطة الآخر، في شعر رعد زامل ، دراسة في المرجعيات الثقافية

عبد الله نجم كزير

م. د نائل عبد الحسين عبد السيد

جامعة ميسان / كلية التربية

الملخّص:

يعد الشاعر مرآة مجتمعه والبيئة التي يعيش في كنفها، فلابد أن تنعكس في شعره إفرازات ذلك المجتمع وهمومه، فتشكل هذه العوامل المشتركة عبر الزمن مرجعيات ثقافية موروثة او معاصرة لزمان الشاعر، فضلاً عن كونها متعارف عليها كمواضعة اجتماعية في ذاكرة المتلقي، لتبرز كأداة من الادوات التي يسعى الشاعر عبر توظيفها لتحقيق عملية تلقي النص، فتأتي محملة برمزية وتكثيف دلالي يحمل رسالة الشاعر للمتلقي بشكل يحقق لها الانفلات من رقابة الآخر وسلطته الممارسة على أنا الشاعر كفرد في مجتمع ، ولا يتحقق فهم مقاصد الشاعر إلا بالرجوع لأصل المرجعية الموظفة وبيان معناها، ليتم بذلك فهم النص ومدلولاته، والتعرف على الجانب المسكوت عنه مما يتعرض له المجتمع من اضطهاد وظلم بفعل الآخر وممارساته التي تتعدى ممارسة السلطة إلى ممارسة السيطرة .

ـ الكلمات المفتاحية : (الآخر ، السلطة، الآخر الغاصب، الآخر المهيمن، الآخر المعتدي).

Abstract:

The poet considers the woman of his society and the environment in which he lives, so the secretions and concerns of that society must be reflected In his poetry. These common factors over time constitute cultural references inherited or contemporary to the poet's time, in addition to being recognized as social objectification In the memory of the recipient, to emerge as a tool Among the tools that the poet seeks to employ to achieve the process of receiving the text, It comes loaded with symbolism and semantic intensification that carries the poet’s message to the recipient in a way that achieves her escaping from the control of the other and his authority exercised on the poet’s ego as an individual in a society. In order to understand the text and Its meanings, and to Identify the unspoken side of what

society Is exposed to in terms of persecution and injustice by the actions of the other and his practices that go beyond the exercise of power to the exercise of control.

ويدور هذا البحث في جانبين ، إذ يتضمن الجانب الاول وهو النظري بيان مفهوم الآخر في مختلف الدراسات الانسانية، ومن ثم الجانب الإجرائي والذي يعمل على تحليل نصوص الشاعر موضوع الدراسة لبيان مدى توظيف الشاعر لهذه الظاهرة.

ـ اولا: الجانب النظري:

١ـ مفهوم الآخر:

ورد هذا المفهوم في كثير من المعاجم العربية، إذ جاء عند ابن منظور بمعنى غير "كقولك رجل آخر وثوب آخر"(١)،كما ورد هذا المفهوم في كثير من الدراسات الفلسفية واجتماعية، وانطلاقا من قول جيمس مارك بالدوين في "إن الأنا والآخر مولودان معا"(٢)، وهذا يعني ارتباط الانا او الذات بالأخر، فلا وجود لأحدهما دون الآخر، "وإن كل ما يطلق على الآخر من تعريفات يمكن أن تطلق أيضا على الأنا منظورا اليها من جهة الآخر"، وبهذا يكون الآخر هو المرآة العاكسة للانا وهويتها، لأن الفرد لا يعرف نفسه إلا بعد أن يقوم الآخر بتعريفه بها، كون أن الانا لا تعرف أنها خيّرة او شريرة إلا من خلال الآخر، فالآخر هو المختلف والمغاير للانا او الذات، وتكون البيئة منطلقاً لهما نظراً لارتباطهما بالهوية، فكل مخالف للانا عرقياً او دينياً او اجتماعياً يشكل آخراً بالنسبة اليها، وقد تعرضه هذه المغايرة إلى الإقصاء حفاظاً على هوية الأنا وديمومتها، وبهذا تحكمهما علاقة الأصل بالصورة (٣).

ـ الآخر في الدراسات النقدية والفلسفية:

بما أن الآخر جاء في معاجم العربية بمعنى الغير كذلك الحال أيضا في الدراسات النقدية، فهو مفهوم ترعرع وتنامى في كنف الثقافة الغربية الفرنسية والإنكليزية، كونه مصطلح لاشعوري يحقق وجود الذات في علاقة بينها وبين ما يقابلها أي الآخر(٤)،وقد ورد الآخر فلسفياً بمعنى "المختلف والمغاير وهو المقابل للذات اي السِوى"، كما وضع هيجل الآخر على مقربة من الأنا في قوله: "إن الوعي بالذات هو انعكاس مشتق من حضور العالم الحسي والمدرك، بمعنى العودة إلى الذات ابتداءً من المغايرة"، وهذا ما حدى بسارتر إلى أن الفرد لا يدرك ذاته إلا عبر الآخر، فحضور أحدهما يعني حضور الآخر ظاهراً او مضمراً، وقد تحدث جاك لاكان عن علاقة الانا بالآخر عبر قاعدته المرآوية التي تحيل إلى التماهي على محور الخيال، كما أشار فالون إلى أن لكل ذات آخراً تحمله داخل ذاتها(٥)،

ـ المفهوم النفسي والاجتماعي للآخر:

جاء مفهوم الآخر في العلوم النفسية: هو مجموعة السلوكيات والصفات الفلسفية والاجتماعية والفكرية والنفسية التي ينسبها فرد او جماعة إلى فرد او جماعة أخرى لتبيّن إنها مختلفة او مغايرة لها ومختلفة عنها(٦)،كما أشار كريس باكر إلى تجلي فكرة الآخر في علم النفس من خلال عمل لاكان على "إن اللاوعي عنده هو خطاب الآخر المشكّل لحظة بناء الذات"، فعندما أكون أنا عربي فالآخر أجنبي في محاولة لإقصاء الغير وتمييزه، وهذا يحصل بغية انتصار الانا مما يقودنا إلى مفهوم الآخر اجتماعياً والذي يطرح تحت غطاء الهوية، وما كان راسخاً في عقول القدماء منذ بدء الإنسان بمجابهة الطبيعة باعتبارها آخراً، ثم انقسمت المجتمعات بعد ذلك إلى طبقات من غني وفقير وسيد وعبد وغير ذلك مما كان مستوحى من البيئة، فشكل العبد آخراً بالنسبة للسيد، وهنا ارتبط الآخر بالهوية والتي يعود إليها الفرد ليخبأ أناه كلما شعر بخطر يهدد استمراريته والهوية: "هي ما ثبت من الانسان عبر الزمن" والتي تمثل أنساق وتقاليد وغيرها تشكل هوية الأنا ضد الآخر (٧)، وفي فلسفة سارتر وفوكو، فالمفهوم بالرغم من صعوبة ضبطه فهو استبعادي يقوم على إقصاء الآخر الغير منتمي إلى نظام الجماعة، فترتبط أهمية الآخر بالإيديولوجيا، فالآخر فضلاً عن كونه غريباً فهو يهدد الوحدة والصفاء، كما أن الأخر عند سارتر ولاكان هو المحدد للذات والمشكل لها، يقول سارتر: "إن وعي الذات الوجودي يؤسسه تحديد الاخر"، أما فوكو فيرى: إن الآخر متعالق مع الأنا تعلقا لا خلوص منه (٨)، أما دريدا فيرى: إن الآخر يمثل الجانب الخارجي للذات، فالانا ليس بمقدورها خلق خارجية عن نفسها دون اصطدامها بالآخر كعالم خارجي بالنسبة اليها والذي لا مفر منه بالتناهي او الاصطدام، فهوية الانا تحيل إلى الآخر كما يحيل الأصل إلى لاحقه وصورته(٩).

٢ـ مفهوم السلطة:

تعد السلطة من المفاهيم المرتبطة بالمجتمع وجسده والمتولدة منه، والمختلفة باختلاف المجتمعات، فالسلطة مرتبطة بالبيئة، وإن أول سلطة هي سلطة الأسرة على اطفالها وإخضاعها لأوامرها ونواهيها، وسلطة المعلم والطبيب، والسلطة هنا غالباً ما تكون مصبوغة بصبغة إقناعية، ويعرف هوبز السلطة تعريفاً تقليدياً في قوله: "هي ما يملكه الفرد من وسائل لنيل بعض النفع الظاهر"(١٠)، فالسلطة قديماً تستند في مشروعيتها على المقدس، لكنها لا تخرج عن القدرة على السيطرة والتأثير في الآخرين بشكل مباشر وغير مباشر عبر خطاباتها المشروعة والمأخوذة من إفرازات المجتمع الذي توجد فيه(١١)، كما أن نظرة الفلاسفة إلى السلطة تُعد نظرة عامة وشاملة، فقد جعل هيجل من السلطة هي الدولة وحسب وهو هنا قوّض السلطة لصالح الدولة فقط، ليضفي بذلك عليها صفة السلطة الأعلى والقدرة المطلقة، ويعرف كارل ماركس السلطة: إنها سيطرة منظمة لطبقة تعمل على استغلال الآخرين ممن هم دونها (١٢)، وقد جاء فوكو فأخرج مفهوم السلطة من قماط النظرة الجمعية البالية، المتمثلة بسيطرة مؤسسة او جهة عليا على الآخرين، إذ أجرج هذا المفهوم من وعائه الضيّق إلى فضاء أكثر رحابة، إذ يرى إن السلطة محايثة للإنسان منذ تشكله الأول، وملازمة له بشكل لا فكاك منه، بدءاً بسلطة العائلة على الأبناء، فهي في نظره موجوده في كل مكان ومتنفذة في جسد المجتمع حتى مع أصغر

طبقة وهي الأُسرة، فضلاً عن كونها ليست شيئاً قابلاً للتملك(١٣)، كما يكون لها أثر في السيطرة على الخطاب من خلال تقييده بطقوس تمنح شرعية الخطاب لبعض المتكلمين، فيسري الخطاب بينهم ولا يخرج إلا بعلمها ووفق أهدافها، وهذ ما دعا فوكو للقول لو أن بالإمكان خروج صوته حراً قبل مثوله لسلطة الخطاب، فلا تقتصر السلطة على الحكومة كونها متاحة للجميع وتسري بين متون كلام البشر في ممارسة حياتهم، كما أنها لا تعمل على الإكراه بشكل دائم، إذ لها القدرة على التأثير في مجرى أفكار الآخرين وجذبهم لتحقيق مقاصدها، إذ تأتي مرتبطة بالمجتمع في شبكة علاقات غير متكافئة ومتغلغلة في نسيجة الاجتماعي، ومخترقة لاستراتيجياته، لتعمل على تقويض الخطاب(١٤)، كما برزت جهات مختلفة عملت على إنتاج السلطة وسوء توظيفها مما أدى إلى انعدام العدالة والمساواة لقيامها على الطبقية والأعراف كوسيلة لإضفاء الشرعية على المكتوب والمنطوق ولا سيما الخطاب العام، فبرزت العنصرية والتي تعد من أخطر الأنماط الاجتماعية، إذ يتم بفعل السلطة النفاذ إلى جزء من الخطاب والهيمنة علية وعلى مضمونه وطبيعة صياغته، فضلاً عن القدرة على السيطرة على عقول الناس بصورة غير مباشرة وإن لم تتم هذه السيطرة بشكل مطلق؛ ألا إن السلطة بإمكانها التحكم في ما سيشغل أذهان الناس من أفكار، فيتم بذلك تقويض الخطاب بفعل النفاذ إلى مصادره، ليتحقق ارتباط الخطاب بالسلطة، بينما يقبع الأقليات بلا قدرة على إيصال خطابهم من قول او فعل، فنجد إن السلطة تقترن من جانب آخر بالسيطرة والتي تقود إلى سهولة ويسر إنتاج الخطاب والتحكم فيه، ليتفاعل الخطاب مع المجتمع بفعل الإدراك "فلا يمكن فهم كيفية تأثير المواقف الاجتماعية في النص او الحديث مالم يفهم طبيعة فهم الناس وإدراكهم وتعاطيهم لهذه الأمور والمواقف الاجتماعية عبر نماذج عقلية خاصة بهم"(١٥) وتعني السلطة الاجتماعية سيطرة جهة معينة على عقول الآخرين وأفعالهم مما تحد من حرية عملهم والتأثير في توجهاتهم المستقبلية و ايديولوجياتهم، مما تقود هذه الأفعال إلى ما يسمى بالهيمنة: وهي إفرازات سوء توظيف السلطة وممارستها عبر السيطرة غير المشروعة لتحقيق مصالحها الذاتية، كما أن سوء توظيف السلطة لا يعني التعسف والقوة على الآخرين؛ فمن وسائل السلطة التأثير في عقول الاخرين وطريقة تفكيرهم، ليؤدي ذلك إلى مبدأ الطاعة وتلقي الأوامر وتنفيذها إيماناً بالسلطة وقبولا بها ورضًا عنها، مما يبرز هنا مراوغة السلطة وحيلها الإقناعية أكثر من اعتمادها على القسرية بفعل وسائلها المادية والتحريضية، ولا يمكن الدخول إلى الخطاب بشكل متكافئ، فليس بمقدور المجتمع الوصول لوسائل الإعلام مثلاً بصورة متكافئة، فلابد من وجود طرف يحظى بإمكانية النفاذ عبر المكانة، والانتماء والهيبة على حساب الضعفاء، ليودي إلى انعدام تكافؤ الفرص وفقدان العدالة(١٦)، كما إن مدى مطابقة الخطاب للصدق والواقع هو من يكسبه المقبولية بصورة عامة، بينما أن السلطة وعبر سيرها على الملفوظات التي تجعلها تكوّن مقبولية لا بفعل صدقها و واقعيتها كالملفوظات المقبولة بناءً على طريقة لفظها، ومن هنا يدرك مدى قبول الخطاب لارتباطه بالسلطة التي تمثل أداةً لسريان الخطاب لا على أساس اختبار الملفوظ وبيان مدى صدقه، بل بمدى ما يتمتع به صاحب الخطاب من سلطة تضمن لكلامه القبول(١٧)، وتقترن السلطة عند ناصيف نصار بالشرعية، أي أن السلطة لا تكون بهذا المعنى حال فقدانها لشرعيتها

المكتسبة من الناس والأعراف وغيرها، كما يؤكد نصار على عدم تماهي سلطة الحاكم مع سلطة الدولة، فنصار يمنح بعض الخصوصية لكل جانب ويوكد على الاستقلال الذاتي للأفراد والدولة(١٨).

ـ ثانيا: الجانب الإجرائي:

ـ تمظهرات توظيف الآخر في النصوص الشعرية:

جاءت نصوص الشاعر موضع الدراسة مكتنزة للكثير من المرجعيات المحققه لمقاصده، كعلامة خفية تتسرب لتعبر عن حقيقة هاربة من قيود الخطاب الذي يمارسه الآخر على الأنا، وتجسراً بما يقوله ميشيل فوكو معبراً عن رغبته في أن يخرج صوته صادحاً بالخطاب، ليكون حراً قبل خروجه هو على منصة الخطاب المحفوفة بطقوس تفرضها سلطة الخطاب المهيمنة الّتي تُملي على المتكلم شروطاً تتماهى ومقاصدها(١٩)، إذ نجد إن الشاعر يحمل ما يوظفه من مرجعيات ودلالات برموز واشارات تحيل لمقاصده المنفلتة من رقابة السلطة مبرزة أثر ممارساتها في واقع يكون فيه الشاعر مرآته العاكسة لأحداثه، وتبرز ممارسات الآخر لسلطته من خلال العديد من المظاهر التي تجلّت في نصوص الشاعر ومنها:

أ. الآخر الغاصب:

إذ جاء الآخر هنا غاصب ممارس للإكراه والسيطرة على الأنا، وهذا ما يخالف إجراء السلطة، إذ تعتمد الاولى وهي السيطرة على الإكراه والقوة، بينما تقوم السلطة في ممارساتها عبر شرعيتها وقبول الآخرين وطاعتهم لأوامرها(٢٠)، ففي نص (عاصفة) يبرز من خلال توظيف هذه المفردة كمرجعية ثقافية جاءت كعلامة تشير في ذهن المتلقي إلى قدرة الآخر الغاصب عبر ممارسة سلطته وكبح جماح حريات الآخرين واضطهادهم مخضعة كل شيء لأهدافها كما العاصفة التي تهبُ دون سابقِ إنذار لتسلب الناس أشيائهم في قوله:

لم اكن عاريا قبل الهبوب

ولكن العواصف

تسلب الناس اشياءهم

انظري الى الريح

كيف تقلبني ذات اليمين

وذات الضياع(٢١)

فمن خلال مرجعيات (العاصفة، الريح) التي جعل منها الشاعر كناية عن الآخر الذي يمارس سلطة الإكراه؛ عبر قناع العاصفة وسلبها لأشياء الناس، جاعلاً من هذه المفردة شفرةً او قناعاً يحيل إلى دلالة الآخر

وسلطته على الأنا، غير أنه لم يصرّح بذلك خوفاً من القمع الذي يمارس على كلام الآخرين عبر التأثير فيهم لتحقيق أغراض السلطة، وفرضها لاشتراطات على من يمارس الخطاب الانصياع لها، ثم ينتقل بنا الشاعر إلى توظيفه لمرجعية دينية جاعلاً منها إشارة تواصليه تحقق إيصال خطابه للمتلقي، فتمنحه الحياة وهي (تقلبني ذات اليمين وذات الضياع) لتتناص مع قولهِ تعالى في سورة الكهف {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ}(٢٢)، مبرزاً من خلالها مدى قدرة الآخر الغاصب وتحكمه في بسط سلطته وسريانها بين متون المجتمع، لما لهذه الآية كمرجعية من وقع في ذاكرة القراء تهمس في آذانهم عن مدى قدرة الله تعالى على تقليب أهل الكهف يمينا وشمالا خشية أن تأكلهم الارض(٢٣)، موضحا من خلالها قدرة العاصفة كناية عن الأخر المضمر في بسط السيطرة على الآخرين وإخضاعهم وهنا تكمن المفارقة كتضاد بين رعاية الله تعالى لعباده، وبين تحكم الآخر برعيته وسيطرته عليهم سلباً، كما يضعنا أمام مشهد الرياح وهي تعبث بالآخرين وتتمادى حتى الضياع، وهذا ما يعرف من خلال العودة لأصل المرجعية الموظفة من أجل سبر أغوار النص، وكشف مقاصد الشاعر الخفية، والمتملصة من رقابة السلطة، فيصور الشاعر الآخر وهو يعبث بالآخرين بشكل مطلق كما تعبث الرياح بطائرة ورقية، لتخضعها تحت تصرفها، فتحيلها إلى أشلاء متناثرة، واصفاً من خلال هذه المرجعية ممارسات سلطة الآخر مغلفة بالشرعية، وفرض إرادتها بالتخويف والترهيب، مثيرة بذلك حاسة الخوف القابعة في أعماق البشر المستحضرة حال الشعور بالخطر في قول الشاعر:

في العاصفة

تفقد ملامحها الوجوه

فيها ايضا

يصعب العثور على مأوى

إذ يجسد الشاعر هنا حالة التّيه في ظل العاصفة فلا أحد يأبه بالآخر، لأن الجميع هناك يلوذ حائرا منشغل بالهرب من الكارثة، مما تفقد ملامحها الوجوه بفقد وظيفة التحديق، وتفقد المظاهر هنا قيمتها مبرزةً بشاعة الآخر، وفي مقطع آخر جاء يحمل رمزية تدل على استياء الشاعر في قوله :

وهذا منزلي؟

ايتها العاصفة

منزلي المشيد من الصفيح

لم يبقَ في العين منه

غير الصدأ(٢٤)

فجاءت مفردات الشاعر الموظفة كإشارة إلى زيف الواقع واصفاً من خلالها تعاسة البشر، فلا حيلة للوذ والهرب ولا سبيل إلا للخضوع لممارسات السلطة، مجسداً ضعف الاخرين، فحتّى منزل الصفيح ما عاد منه إلا الصدأ راضخاً للرياح والعواصف كآخر يتسلل ويمارس تحقيق مقاصده على الأنا المستسلمة. إذ يشكل مفهوم السلطة في الذاكرة العربية مفهوماً ضيقاً لا يخرج عن دائرة ممارسة سطوة الآخر، فيجعلنا الأمر أمام طرفين يكون الاول فيها متسلطاً وآخر خاضعاً راضخاً عبر التأثير او الإكراه، ومن هنا ينجلي المفهوم العام للسلطة في إنها المؤسسة الممارسة لسيطرتها على الاخرين بالأقصاء والتأثير(٢٥)، ثم ينتقل بنا الشاعر في نص (نشيد رقم١) ليبرز لنا في هذا النص كيف يستبيح الآخر الغاصب قرية ذلك الموطن الصغير الذي نشأ فيها يقول:

كانت هنا شجرة

بين اغصانها

تحملني كأم

فالبرابرة

وعلى راسهم ذلك الأبله الخريف

كلما دخلوا قريتي

حملوا اشجارها كالغنائم(٢٦)

يحدثنا الشاعر هنا عن الآخر عبر مرجعية (البرابرة) وهم الغزاة الغرباء الأشرار فيعبر هنا عن مظلوميته، وكيف إن هؤلاء في ممارستهم للقوة والإكراه يفسدون قريته ويحملون غنائمها كما يفعل الخريف، فالخريف مفردة وظفها الشاعر هنا ليبرز للقارئ حجم اغتصاب الأشياء رغما عن أصحابها، إذ يقول لوك: إن الكلمات تعد من الإشارات المادية لأفكار المتكلم فليس بمقدور أحد تطبيقها مباشرة على شيء آخر سوى على الأفكار التي يمليها الشاعر كفرد على نفسه لتكون وسيلة لإيصال مقاصده وتوضيحها، فتكون هي الفكر نفسه، كونها ليست قشرة خارجية مضاعفة له؛ فهي التي تستدعي ذلك الفكر وتشير إليه من الداخل (٢٧)، فالخريف يعد اشارة من الشاعر عبر ما يفعله من انتزاع جمال الأشجار وخضرتها ليحيلها إلى أغصان جرداء عارية (تعرية الطبيعة) كذلك هم البرابرة يسفكون وينهبون فيسلبون الأمان من تلك الشجرة التي كان يخبئ أناه تحتها، وكانت تظلله بحنانها وتدثره كأم يلوذ بها عند خوفه وشعوره بالخطر، يريد الشاعر هنا أن يوضح ما تمنحه الأشجار من خيرات وثمار وجمال، او أنه يوحي بسلب وسبي لنساء القرية واستباحة حرمتها وكل هذا يجسده الشاعر في صور دلالية ليبرز لنا مظاهر سوء ممارسة سلطة الآخر ذلك الشرير وفرض إرادته قسراً، فيشكو الشاعر هنا آلامه من فقد الأشجار والمأوى ونساء القرية وكل ما من شأنه أن يؤخذ غنيمة ليكون إهانةً للآخرين فيترك الشاعر كفرد ممثل لمجتمع مهمل في قوله:

وتركوا شاعرها يترقب كطفل

اغرورقت عيناه بالأسئلة

والدموع(٢٨)

وهنا يضعنا الشاعر أمام مشهد فقدان الطفل لأُمه، ومدى صلة الطفل بالأم التي كانت تدثره بأوراقها ويخبئ أناه عندها حين ينهمر الرصاص إشارة او علامة على الخطر، ليظهر لنا حجم الكارثة وقسوة الآخر ذلك الذي يفسد كل شيء من خلال ممارسة سلطته على الطفل،" فلا تنحصر ممارسات السلطة ضمن شبكة التفاعل بين العلاقات غير المتساوية فهي ممارسات ملازمة وفاعلة في العلاقات غير الخارجة عن نطاقها"(٢٩)،أي أن السلطة في ممارساتها تُحسن النفاذ إلى جميع العلاقات المشتركة معها كونها ليست مقتصرة على جانب دون آخر، فيُجسد الآخر في صورة ذلك الخريف واولئك العتاة البرابرة الاشرار المتمادين في بسط سيطرتهم على كل ما هو داخل تحت وطأتهم.

ب ـ الآخر المهيمن:

يتجلى الآخر الباسط لسيطرته على الآخرين والمهيمن على سلوكياتهم وأفكارهم عبر نص (الفراشة العذراء)، إذ يخضع الآخرين بفعل إكراهاته، ليسود الخوف في نفوس البشر عبر قوله:

لن اغمض فكرتي

هذه الليلة

وعندما انام فعلى

قدم راسخة

خائفا كمالك الحزين(٣٠)

تتجلى في هذا النص علامات الخوف من خلال توظيف الشاعر لمرجعية ثقافية (مالك الحزين)، ذلك الطائر بقدميه الطويلتين الذي يعيش قرب البحيرات والمستنقعات، والتي ما إن تجف بفعل الآخر كإجراء لفرض إرادته، فيغدو هذا الطائر مهملاً مهمشاً عبر تعرضه لأشد أفعال الإقصاء من خلال تجفيف مصادر الحياة، فيبقى بجوارها حزيناً مطأطئ الرأس تنبعث منه علامات الخيبة والخذلان، جاعلاً من الطائر مرجعية ثقافية موضحة لمقاصده كمواضعة اجتماعية متعارف عليها في ذاكرة القراء، مثيراً على ملامحهم علامات الدهشة، وهذا ما يجسد دور المرجعية في منح النص عمقاً دلالياً عبر استحضارها بثوب جديد وحلة براقة(٣١)، ليبرز لذلك الطائر الخائف والخاضع لإكراهات الآخر عبر سلب حقوقه من أمامه، جاعلاً منه كناية على البشر الذي

ينام على قدم راسخة من شدة الخوف والتأهب شعوراً بواقع قلق وخطر، فتنبعث آلام الشاعر عبر النص كرموز ومرجعيات تقود المتلقي لأشد أنواع الإكراه الممارس على البشر بفعل الآخر، فيضع الشاعر أناه كما لو أنه فريسة في قوله:

رأسي تحت ابطي

واحلامي تتعفن فوق السرير

مثلما تلمع عيون الذئاب

حول الفريسة تلمع

عيونهم حولي(٣٢)

فيبرز هنا دور الآخر في ممارسة سلطته على الآخرين وتقييد ممارساتهم من خلال زرع العيون ومجسّات المراقبة سعياً للسيطرة على كل شيء، من خلال خطاب الشاعر الذي يظهر بعمق قدرة السلطة على تغلغلها بين ثنايا البيوت ومعرفه أفكار الآخرين في قوله:

متى ما احلم بالعشب

يدسون الحسرات في اذني

متى ما افكر بالحقول

يطلقون وابلا من الجراد

على رأسي

فتظهر هنا مدى قدرة السلطة على فرض سيطرتها على الآخرين، من خلال مفردات حملت مرارة الشاعر وخيبته تجاه الآخر المسيطر، مبرزةً مدى نفوذ السلطة حتى على أفكار البشر في قول: متى ما أحلم بالعشب يدسون الحشرات في أذني، عبارات مجسدةً للبؤس والحيرة، جاءت كمرجعيات تحيل في ذاكرة المتلقي إلى مدى قدرتها على العبث بالمحاصيل في تلك الحقول عبر علاقة هذه الكائنات في مخيلة القارئ مع الأعشاب والحقول وقدرتها على إفسادها، مجسدةً مساعي السلطة على المثول في فكر البشر وتأثيرها عليهم سعياً منها لقمع محاولات التمرد الخارجة عن إرادتها الدخيلة من الآخر الغربي والساعية للتغيير بما لا يتناسب مع المجتمع مما يبرز دور الشاعر هنا للدفاع عن اعرافه وتعاليمه المكتسبة بصورة ساخرة من الآخر الغربي او المتشبه به(٣٣)،ومن ثم فتسقط الأحلام تحت وطأة الآخر، ولا سبيل لها بعد ذلك الا أن تتعفن فوق السرير فاقدة لوظيفتها في الحياة، ومن ثم يصف الشاعر في مقطع آخر كيف تتملص السلطة من أعمالها في قوله:

سيحدث كل ذلك بلا ضجة

سيكتبون على قبري

مصابا بتضخم في الدماغ

او قتلته فكرة نافرة(٣٤)

إذ تبرز في هذا النص قدرة السلطة ومراوغتها في اختلاقها لمسوغات تكون ذريعة للتملص من أفعالها القاتلة للبشر، من خلال أفعالها المتسترة الخفية والتي تسعى لممارستها خلف حجاب المشروعية المكتسبة من المقدس ورضا الآخرين، غير أنها تمارس في الخفاء أعمال الإبادة والإقصاء والقتل بلا ضجة، فلا ألسنة تلوك الكلام هنا ولا أعين ترى الحقائق، بفعل التخويف الممارس عليها مسربا مسوغات تغطي فعلته هربا من الجريمة كفكرة نافرة مثلاً او تضخم في الدماغ والتي جاءت كمفردات وظفها الشاعر قاصدا من خلالها النقد الساخر من الآخر، وقد مثّلت السلطة في الفكر القديم قدرة الفرد على تمرير وإصدار أوامره وما على الأخرين إلا الطاعة والرضوخ، مستنداً في ذلك إلى شرعية منحتها له الشعوب او طبيعة المجتمع، إذ أن هذا الأخير هو من يضع على نفسه نقاباً وقضايا تكسب السلطة الشرعية كالدين والقدسية والسياسة وغيرها، فهي وليدة المجتمع منبعثه منه وإليه، ألا أنه بفعل تطور المجتمعات أصبحت السلطة تعهد إلى حاكم يتم انتخابه بواسطة الشعب، فيكون بذلك سلطة ساعيةً لما فيه تحقيق مصالح المجتمع ورضاه (٣٥)، ومن ثم ينتقل بنا الشاعر إلى نص مثل قسوة ممارسة الآخر لسلطته وهيمنته على الأنا من خلال أفعال السرقة والحرمان وتجويع الشعوب، مثل بذلك نصاً سياسياً غير أن الخطاب السياسي كما يقول فوكو: "إنه يُركن في خانة سوداء بدل أن يكون سليما ومحايدا غير أنه موقف تمارس فيه السلطة"(٣٦) أي أن الخطاب المحمل بمدلولات سياسية يُعد مثاراً للخطر، الذي يشكل لثاماً يمسك بالحقائق حائلاً دون خروجها، فيفقد بذلك وظيفته التواصلية ليُركن في خانة سوداء، ولا سبيل لخروجه إلا مضمراً، كما يفعل الشاعر هنا في نص (من دفتر الجوع والعائلة)، في قوله:

اقول ذهب ابي يشتري قمحا

كي يعيد للعائلة مجدها

ولما رجع...

وجد ان الارضة

وجد ان الارضة

قد اكلت اواصر العائلة!!(٣٧)

وهنا يضعنا الشاعر هنا أمام سوء ممارسات الآخر لسلطته على الاخرين، من خلال توظيفه لمفردة الأرضة كمرجعية تشير إلى الآخر وكناية مستترة عنه هربا من رقابة السلطة على الخطاب، إذ يتفشى الجوع في المجتمع، حتى مفردة المجد باتت تحيل إلى أبسط مقومات العيش كالقمح مثلا دلالة على الضعف والخيبة، بدل التفاخر بشيء مائز، بفعل الأرضة التي تسلب جهود الإخوة كناية عن المجتمع، منطلقا في ذلك من الحلقة الأولى وهي الاسرة قاصداً من ورائها وصف هموم البشر، في واقع يسلب حقوق الآخرين ويفككك أواصر العائلة، ومن هنا يفهم إن السلطة تتجلى في ممارسة نشاط على سلوكيات الاخرين والتأثير في مجرى حياتهم، من أجل خدمة أغراضها الشخصية، كون أن علاقة الفرد بالسلطة في الواقع تقوم على رفض الآخر من خلال ممارسة العنف والإقصاء عند مخالفته لأهدافها مما تعده متمرداً على شرعيتها(٣٨)، مما يجعلها هذا الأمر تتسم بالأنانية، وتعمد إلى تحقيق أغراضها ليس بالإكراه فقط؛ بل وبالصمت والموقع الاجتماعي، فتظهر أمام أعين العامة سليمة وعادلة وغير ملطخة بالجريمة، ومن ثم فمرجعية القراصنة في قول الشاعر:

رغم ان ابي

كان قبطانا بارعا

وامي تنشر عباءتها مع الريح

واخوتي يجذفون بأيديهم

فقد غرقت العائلة

ليس لان البحر كان غاضبا

ولكن جيراننا جميعهم قراصنة! (٣٩)

حملت هذا المفردات إدانة الآخر والتي وظفها الشاعر هنا كمرجعية تحيل في ذاكرة المتلقي إلى اللصوص الذين يستولون على بواخر الآخرين وأملاكهم بالسيطرة والسلب بالإكراه والقسر، وعبر اختراق الشاعر هنا لمخيلة المتلقي تمّكن من الإشارة إلى مقاصده المضمرة، والتي تدل على إن القراصة هم الآخر المتسلط، والذي يمارس السلطة ولا علاقة لغضب البحر بالكارثة، رغم مساعي العائلة للنجاة والتي تظهر من خلال مفردة (يجذفون بأيديهم)، دلالة على مدى شدة العناء الذي جاء تماهياً مع ما تحمله روح الشاعر المثقلة بالآلام فيحاول أن يختار لها ما يناسبها من الكلمات لتتساوق مع حجم الكارثة، عبر غرق السفينة، وعدم إفلاح كل المحاولات للنجاة مثبتاً براءة البحر، وجرم القراصنة، فهذا النص تنبعث منه رائحة نقد سياسي صارم، يتسرب من داخل المرجعيات الموظفة والتي أدت وظيفتها لخدمة النص فمنحته بذلك عمقاً دلالياً، مبرزة إقصاء الآخرين وتهميشهم وسيطرة الجيران على مقاليد الأمور، فتغدو السيادة خجلةٌ غائرةٌ بفعل سلوكيات السلطة المتواطئة مع القراصنة لتحقيق أغراضها.

ج ـ الآخر المعتدي:

استناداً على قول فوكو: "إن الخطاب يعد مجسداً مادياً لقراءاتٍ مستترة تعمل على الهمس بالمعنى" ومن هنا تأتي وظيفة اللغة من أجل النهوض بهذا المعنى، فيكون الخطاب تجلٍ لحقيقة جوهرية في طور البناء، إذ يضع الخطاب نفسه موضع الدال الذي يخفي مدلولا، ويظهر هذا الأخير عبر اللغة كعلامة تشير إلى كوامن خفية بفعل الخوف والرقابة على الخطاب(٤٠)، وقد جاء في نص (ثعالب وعيون) خطابا مستتراً مجسداً من خلاله عمل السلطة في فرض الرقابة على الخطاب، من خلال سريان ممارساتها التي تبيد الأمل في مجتمع يتعرض للاعتداء بفعل الآخر، فحمّلت مفردات الشاعر مرجعيات تخفي تحت ردائها الخوف من الآخر المعتدي وقيوده المكبلة للحياة في قوله:

لا احمل رائحة للفتنة

وليس في ملامحي ما يثير

الشبهات..

غير ان الثعالب والعيون

تلاحقني في الازقة

لان قميصي مطرز بالعنب

يقدم الشاعر هنا في فاتحة النص المبررات حول أنه ليس فتنة وليس فيه ما يثير الشبهات، غير إنه مع هذا تلاحقه عيون السّلطة عبر مرجعية (الثعالب) وما تحمله من دلالات الغدر والخداع، فيخرج خائفاً متربصاً من المدينة وتلاحقه العيون بفعل العنب، فهنا يثير الشاعر مخيلة القارئ إلى ما تحمله هذه العبارة من دلالة (الحياة، العطاء)، وتبرز نوايا السلطة هنا عبر سعيها لإقصاء كل من يحاول مخالفتها في محاولة لانعاش الحياة، كما يصف الشاعر سطوة السلطة عبر قمع الآخرين لا لجرم فقط لممارسات ينبعث منها الأمل في قوله:

انهالت على رأسي الفؤوس

لأنني اردت ان احرر الشجرة

من قبضة الجفاف(٤١)

ففي ذلك المجتمع تنهال الفؤوس عليه لأنه ينوي إنقاذ الشجرة من الجفاف، ولأجل اقتلاعه هو الآخر لا لشيء فقط لأنه متقد بالأمل والجمال، وهنا يتأكد دور الأخر في تحكمه بالآخرين وأفكارهم ،إذ يضعنا الشاعر أمام مفارقة وهي مراقبة وإقصاء لمحبي الحياة والخير في سعي الآخر لإبادة أنا الشاعر(العنب، الأمل) التواقة

الى الطبيعة وجمالها كجزء من الإرث الهوياتي، فيسود الجفاف في تلك الأهوار موطن الشاعر وقريته، وهنا تكمن ممارسة سلطة الآخر المعتدي بشكل غير مشروع لإفساد الوجود وتغييره، مما يسود مفهوم السيطرة لا السلطة، رغم مبررات الشاعر في أنه ليس مشبوهاً غير أن النوايا لا تعيش أحيانا عند اصطدامها بما يعارض السلطة التي تنتزع من الاشجار حياتها، فتمارس السلطة رغباتها، إذ إن كل شيء هنا يخلو من العدالة والحرية، فالسلطة هنا تسمح للآخرين ممن يشيرون الشبهات والفتن في أن يمرحوا كما يحلو لهم وبالمقابل تمارس سلطتها عبر إقصاء كل ما يدعو للأمل والحياة، ليبرز لنا الشاعر ما ساد مجتمعه هناك من ظلم واستبداد وتهميش، ودعوة للخراب والجفاف، فتختلُ الموازين عبر إسقاط آخر بادرة أمل تلك الشجرة المطرزة بالعنب، كما يشير ماكس فيبر: إن العنف يعد وسيلة طبيعية تكفل للسلطة ممارسة مشروعيتها، إذ إن فيبر يبحث في إمكانيات شرعنة السلطة ودورها، مستنداً في ذلك إلى الأعراف الموروثة من الأسلاف تحت وطأة المقدس الذي يثير الخوف حيال مخالفته بالعقاب، فتجعل السلطة من مفردة القداسة وسيلة تغلب على أذهان المجتمع وتسيطر على أفكارهم خوفاً من انتهاكها، فعلى الجميع تقديم فروض الطاعة؛ لأن المخالفة جرم يؤدي بصاحبه لعواقب وخيمة، وبهذا تكتسب السلطة مشروعيتها في ممارسة دورها من المجتمع، فتسيطر عليه وتخضعه لإرادتها، كما يشير دي جوفنيل الى الحالة التي تنتاب الفرد حال توليه السلطة مطلقاً عليها تسمية (الأنا الحكومية)، التي يتجلى من خلالها شعور الفرد بفرادته عن غيره فيسمو ويتعالى، ومن هذا التعالي تتولد قداسة السلطة على الضعفاء ممن لم يحظَ بها(٤٢).

ـ الخاتمة:

ـ أن الشاعر يوظف المرجعيات في نصه ليجعل منها إشارة او دلالة تحقق إيصال مقاصده إلى المتلقي بشكل مستتر لأجل افلات خطابه من مجسات السلطة ورقابتها .

ـ تعد المرجعيات الثقافية إرثٌ أدبيٌ راسخٌ في ذاكرةِ القراءِ موضحاً من خلالها قدرة الآخر الذي جاء مبطناً بمرجعيات تبرز مدى قدرته في بسط سيطرته بالقسوة والإكراه على واقع ساد فيه الظلم والنظرة المغايرة، ومجتمع نخرته الحروب، فانعكست تبعاتها على الشعب.

ـ الهوامش

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت . لبنان، ط٣، ١٩٩٤، ص١٥١

(٢) ينظر: الانا والآخر الشخصية العربية والشخصية الاسرائيلية في الفكر الاسرائيلي المعاصر، د. عمرو عبد العلي علام، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥، ص١١.

(٣) ينظر: الفكر الوجودي عبر مصطلحه دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، عدنان بن ذريل، سوريا. دمشق، ١٩٨٥، ص٥. وينظر: مانغ فيلب، نسق المتعدد، ط١، ت، عبد العزيز بن عرفة، مركز الحضاري للإنماء، ٢٠٠٢، ص١٢.

(٤) ينظر: الانا والآخر في شعر محمد الفهد العيسى، رسالة ماجستير في الادب العربي، الباحث: عبد الله الاسمري، اشراف: الدكتور احمد علي عبد العاطي، جامعة المدينة العالمية، كلية اللغات، قسم الادب العربي والنقد الادبي، ماليزيا، ٢٠١٤، ص١٠٥

(٥) ينظر: علم ظهور العقل، هيجل، ت: مصطفى صفوان، دار الطليعة، ط٢، بيروت، ١٩٩٤، ص١٣٤.

(٦) ينظر: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الاموي حتى نهاية العصر العباسي، د. سعد فهد الذويخ، عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠٠٩، ص١٠،٩.

(٧) ينظر: جداية الانا والآخر في الشعر الصوفي، اطروحة دكتوراه، صالح ابراهيم نجم، اشراف: الدكتور وفيق محمد سليطين، امعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الانسانية، قسم اللغة العربية، ٢٠١٣،٢٠١٢، ص٢٦،٢٥.

(٨) ينظر: الذات والآخر في الخطاب السردي، اطروحة دكتوراه، الباحث: حاتم زيدان، اشراف: أ. د. العيد جلولي، جامعة قاصدي مرباح . ورقلة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والادب العربي، الجزائر ٢٠٢٠،٢٠٢١، ص٥٢،٥١.

(٩) ينظر: الكتابة والاختلاف، جاك دريدا، ت: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٠، ص٩٢،٩١.

(١٠) ينظر: خطابات السلطة من هوبز الى فوكو، باري هندس، ت: ميرفت ياقوت، م: باكر قنصولة، المجلس الاعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٥، ص٥١.

(١١) ينظر: السلطة في الرواية العراقية، د. احمد رشيد الددة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد. العراق، ط١، ٢٠١٣، ص٣١،٢٠.

(١٢) علاقة المثقف بالسلطة عند ناصيف نصار، رسالة ماجستير، جامعة الاخوة منتوري . قسنطينة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، الوردي حيدوسي، اشراف: الاستاذ الدكتور: اسماعيل زروخي، الجزائر، ٢٠١٢، ص١٦،١٥،١٤.

(١٣) ينظر: المعرفة والسلطة، ميشيل فوكو، ت: عبد العزيز العيادي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٤، ص٤٨،٤٣. وينظر: نظام الخطاب، ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص٦٥،٦١.

(١٤) ينظر: نظام الخطاب، ميشيل فوكو، ت: د. محمد سبيلا، دار التنوير،ص٥،٤. وينظر: فاعلية السلطة في الرواية العراقية فؤاد التكرلي إنموذجا، اطروحة دكتوراه، جامعة البشرة، كلية الآداب، الباحث: محمد عبد الحسين هويدي، اشراف: ا. م. د. لؤي حمزة عباس، العراق،٢٠١١، ص١١،٧.

(١٥) ينظر: الخطاب والسلطة، توين فان دايك، ت: غيداء العلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠١٤، ص٢٣،٢٢،٢١،١٩.

(١٦) ينظر: الخطاب والسلطة، المصدر السابق، ص١٥٣،١٥٢،١٥١.

(١٧) ينظر: معجم تحليل الخطاب، باترك شارودو . دومينيك منغنو، ترجمة: عبد القادر المهيري . حمادي صمود، دار ركيشاش سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، د ط، ٢٠٠٨، ص٨٧.

(١٨) ينظر: علاقة المثقف بالسلطة عند ناصيف نصار، رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣.

(١٩) ينظر: نظام الخطاب، ميشيل فوكو، المصدر السابق ، ص٥،٤.

(٢٠) ينظر: علاقة المثقف بالسلطة عند ناصيف نصار، رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص٢١.

(٢١) الاعمال الشعرية ١٩٩٩. ٢٠١٩، رعد رامل، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد. العراق، ط١، ٢٠٢٠، ص١٨١.

(٢٢) سورة الكهف ،الآية ١٨.

(٢٣) ينظر: https://surahquran.com/aya-tafsir-18-18.html

(٢٤) الاعمال الشعرية ١٩٩٩– ٢٠١٩، رعد زامل، ص١٨٢.

(٢٥) ينظر: السلطة في الرواية العراقية، د. احمد رشيد الددة، مرجع سابق ص٢١،٢٠.

(٢٦) الاعمال الشعرية ١٩٩٩-٢٠١٩، رعد زامل، ص٢٧،٢٨.

(٢٧) ينظر: الكلمات والاشياء، ميشيل فوكو، ت: مطاع صفدي، د. جورج زيناتي وآخرون، مركز الانماء القومي، بيروت . لبنان،١٩٩٠، ص٨٥،٨٨.

(٢٨) الاعمال الشعرية ١٩٩٩-٢٠١٩، رعد زامل، ص٢٨.

(٢٩) ينظر: المثقف والسلطة المشتركة في كتابات ميشيل فوكو، أ. اعمر هرموش، جامعة صفاقس، قسم الفلسفة، مجلة الابراهيمي للأدب والعلوم الانسانية، الجزائر، عدد:٣، ٢٠٢٠، ص١٦٣.

(٣٠) الاعمال الشعرية ١٩٩٩-٢٠١٩، رعد زامل، ص٦٥.

(٣١) ينظر: المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، ابن الاثير، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ـ مصر ط١، ص٦١.

(٣٢) الاعمال الشعرية ١٩٩٩-٢٠١٩، رعد زامل، ص٦٥،٦٦.

(٣٣) ينظر: الآخر في الشعر العربي الحديث تمثل وتوظيف وتأثير، د. نجم عبدالله كاظم ، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان،ط١، ٢٠١٠،ص١٨٨،١٨٩.

(٣٤) الاعمال الشعرية ١٩٩٩-٢٠١٩، رعد زامل، ص٦٦.

(٣٥) ينظر: السلطة في الرواية العراقية، د. احمد رشيد الددة، مرجع سابق ص٣٠.

(٣٦) ينظر: السلطة في الرواية العراقية، د. احمد رشيد الددة، مرجع سابق ص٣٠.

(٣٧) الاعمال الشعرية ١٩٩-٢٠١٩، رعد زامل،ص٣١.

(٣٨) ينظر: السلطة في الرواية العراقية، د. احمد رشيد الددة، مرجع سابق، ص٢٤،٢٥.

(٣٩) الاعمال الشعرية ١٩٩٩-٢٠١٩، رعد زامل، ص٣٣.

(٤٠) ينظر: نظام الخطاب، ميشيل فوكو، مرجع سابق، ص٢٦،٢٧.

(٤١) الاعمال الشعرية ١٩٩٩-٢٠١٩، رعد زامل، ص٤٢،٤٣.

(٤٢) ينظر: المعرفة والسلطة، ميشيل فوكو، مرجع سابق، ص٤٧.